شبكة الألوكة
www.alukah.net

مكتبة الملك عبدالله بن عبدالعزيز الجامعية

مخطوطة

رسالة ابن زيدون في الأدب

المؤلف

احمد بن عبد الله بن احمد (ابن زيدون)

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة ام القرى

مكتبة الملك عبدالله بن عبدالعزيز الجامعية

قسم المخطوطات

رسالة ابن زيدون
في الأدب

(٤)

بعرف لذا الاقاحة عرف نفوسنا
وقدنا سبيل القصد والدليل فاضل
وقد عجزنا في علاه تفضلا
سحائب راحته بديه تهاطل
فلو قيل من في النوم اضحى منصفا
والنوم قيد في الرجال بخامل
واى فتى في الجي اكرم محتدا
اشارت اليه في الانام الانامل

٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يجب الحمد له ، وصلى الله على سيدنا محمد المخصوص بأشرف رسالة ، وعلى آله وصحبه فإنه أفضل وأكرم صحبه وآله ، وأدام الله تعالى أيام مولينا السلطان المؤيد العالم العادل عماد الدين أدامة متصلة الجلالة ، متقبلة الأيالة ، ما جنح عسل النصر الشهي رماحه العسالة ، وأثمرت غصون أقلامه المنعمة بين ديم أنامله الهطالة ، من فروض نعمه علي ، ومفروض منه لدي ، أن أدعو لأيامه المكرمة كلما صليت على نبي المرحمة ، وأذكر من أصلح لنا أمور الدنيا القائمة ، كلما ذكرت من أصلح أمور الدين القيمة طلبا لإجابة الدعاة ، وإثابة الرجاة ، فصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وانتظم ببقاء من سبقت مواهبه الغيث فصلى ، وأعجزته فسلم ، وبعد فإني أمرت بشرح رسالة الوزير أبي الوليد بن زيدون التي ذكرها ، وأيضاح براهينها الفاضح على كثير من سراة الأدب سرها ، فقلت ما أنا وصعود هذا الصرح ، وولوج هذا الباب ، ومعارضة ذلك البازل من ذلك الطرح ، وهل أنا الرصاحب أبيات تقيمها القريحة المطبوعة ، وكلمات تأتي على العفو فقرها المسجوعة ، فتى أخرجت عن ظل أبياتي ظلمت ، ومتى أبعدت عن رياض سجعي الميت ، هذا مع تشعب فنون هذه الرسالة ، وإحجام الفضلاء عن الخوض في غدرها السيالة ، فقيل لي إنك مختصر من شرحك على الاختصار ، ونهب تقصيرك لما قدمت بين يدي نجواك من الأعتذار ، ورضي

من بيانك بادني الحصص ، وتنفع من تاريخ القاضي ببعض الفرص ، وإذا كنت من الشعراء فأنت بعيد من القصص ، فقابلت بالطاعة أمرا قد وجب ، وقلت لئن فاتني سلوك الأدب ، فإن الامتثال من سلوك الأدب ، وكنت أعرف ببعض خزائن دمشق الوقفية أسفارا فيها للمطالع منجع ، وللأفهام الناسية ذكرى تنفع ، فلم يتهيأ أن أعارضها كتابا ، ولا راجع من السنة حروفها حظا بابا ، فقلت هذا عذر آخر لم يكن في الحساب ، وهذا قصد تعلقت دونه الكتب فإنها ذات أبواب ، وما بقي إلا الرجوع إلى الصبابة الحاصل التي أبقتها نوب الدهر ، واستنباط النمد إذا أعجز ورود البحر ، ثم أميلت هذه الرسالة عن فكر مسه القرح ، وشرحت الرسالة بي مقصرة وما أطيل الشرح ، بيد أني لم أعتمد الرأي على نقل صحيح ، ونسب قول صريح ، ولم أخل ترجمة كل مذكور من فائدة سائغة ، ونادرة ساغة ، وأقوال سديدة ، وأبيات مشيدة ، وفقرها أحظتها فطنة سعيدة ، لم آل في اختيارها جهدا ، ولا زدت مع صرف الزمان النقد إلا هذا مع تجنب الإكثار ، وترك الإطناب بنظائر الأشعار ، والتخفيف مما لعل المباحث تقتضيه من الغبار ، والله تعالى الموفق لصواب الإرادة ، ومعين الخادم على القيام بطاعة السادة ، وجابر ما وهنهم بما يتلقونه من امتثال أوامرهم السادة .

ذكر منشئ هذه الرسالة هو

هو الوزير أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي الكاتب الشاعر المشهور ، ولد بقرطبة سنة أربع وتسعين وثلثمائة ، وكان من أبناء الفقهاء ، ثم اشتغل بالأدب وفحص عن نكته ونقب عن دقائقه إلى أن برع وبلغ من صناعة النظم والنثر المبلغ الطائل ، وانقطع إلى أبي الوليد بن جهور أحد ملوك الطوائف المتغلبين بالأندلس فحف عليه ، وتمكن من دولته ، واشتهر ذكره وقدره ، واعتمد عليه في السفارة بينه وبين ملوك الأندلس فأعجبه القوم ، وتمنوا ميله إليهم لبراعته وحسن سيرته ، واتفق أن نقم عليه ابن جهور أمرا فاعتقله واستعطف ابن زيدون برسائل عجيبة وقصائد فلم تنجع ، فهرب واتصل بعبد الله بن محمد صاحب إشبيلية الملقب بالمعتضد ، فتلقاه بالقبول والإكرام وولده وزاده وفوض إليه أمور مملكته ، وكان حسن التدبير تام الفضل محببا إلى الناس فصيح المنطق جدا ، حكى ابن بسام في كتاب الذخيرة عن بعض وزراء إشبيلية قال عهدي بأبي الوليد

بن زيدون قائماً على جنانة بعض حرمه والناس يهنونه على اختلاف طبقاتهم فاسمعته يجيب
احداً بما اجاب به عنهم لسعة مبدانه وحضور جنانه ولم يزل عند عباد وعند ابنه المعتمد
على الله قائم الجاه وافر الحرمة الى ان توفي باشبيلية سنة ثلاث وستين واربعمائة رحمه
الله برحمته وقد ذكره ابن حيان وابن بسام وغيرهما من المؤرخين واجروا
نبذاً كثيرة من اخباره وقفت على ديوان شعره وكثير من ترسله ونظمه عند
النقاد اجود من نثره وكان يسمى بحتري الغرب لحسن ديباجة لفظه وسهولة معانيه
فاما نثره فانه اكثر فيه من استعمال امثال العرب وحل اشعار المتقدمين والمتأخرين
الى ان قيل ان رسائله اشبه بالمنظوم من المنثور وعلى هذا فقد دل بها على اطلاع
عجيب واستحضار معجز وقد اكتفيت منها بذكر هذه الرسالة المشروحة ٨ ٨ ٨

٨ ومن شعره قال من قصيدة يخاطب بها ابن جهور ايام سجنه ٨ ٨

٨ ما جال بعدك لحظي في سنا القمر ٨ الا ذكرتك ذكر العين بالاثر ٨
٨ ولا استطلت ذنابا الليل من اسف ٨ الا على ليلة سرت مع القصر ٨
٨ يا ليت ذاك السواد الجون متصل ٨ قد استعار سواد القلب والبصر ٨
٨ جمعت معنى الهوى في لحظ طرفك لي ٨ ان الحوار لمنهوم من الحور ٨
٨ لا يهنئ الشامت المرتاح ناظره ٨ اني عنى الدهر في ضائع الخطر ٨
٨ هل الرياح بنجم الارض عاصفة ٨ ام الكسوف لغير الشمس والقمر ٨
٨ ان طال في السجن ايداعي فلا عجب ٨ قد يودع الجفن حد الصارم الذكر ٨
٨ وان يثبطنا بالحزم الرضا قدر ٨ عن كشف ضري فلا عتب على القدر ٨
٨ من لم ازل من تدانيه على ثقة ٨ ولم ابت من تجنيه على حذر ٨

٨ وقال من ابيات في بني جهور ٨ ٨

٨ بني جهور ارقتم بحفاكم ٨ جفاني فما بال المدائح تعبق ٨
٨ تعدونني كالعنبر الورد انما ٨ تطيب لكم انفاسه حين يحرق ٨

٨ وقال فيهم من ابيات ٨ ٨

٨ ان الجماورة الملوك تبوؤا ٨ شرفا جرى معه السماك جنيبا ٨
٨ فاذا دعوت وليدهم لعظيمة ٨ لبى دعاك السماح اريبا ٨

هم

٨ هم تعاقبها النجوم وقد تلد ٨ في سودد منها العقيب عقيبا ٨
٨ ومحاسن تندى دقائق ذكرها ٨ فتكاد توهمك المديح نسيبا ٨

٨ وقال من قصيدة يمدح بها المعتضد ٨

٨ اما في نسيم الريح عرف يعرف ٨ لنا هل لذات الوقف بالجزع موقف ٨
٨ وليلة وافينا الكثيب لموعد ٨ سرى الذيم لم يعلم بمراه مرجف ٨
٨ تهادى اناة الخطو مرتاع الحشا ٨ كما ريع يعفور الفلا المتشوف ٨
٨ فديتك اني زدت نورك فاضح ٨ وعطرك نمام وحليك مرجف ٨
٨ هبيك اعتسفت الحي واشيا هاجع ٨ وفرعك غربيب وليلك اغصف ٨
٨ فكيف اطقت المشي خصرك مدمج ٨ ورفدك رجراج وقدك اهيف ٨
٨ فما قبل من اهوى هوى البدن هودج ٨ ولا ضم ريم القصر خدر مستجف ٨
٨ ولا قبل عباد هوى البحر مجلس ٨ ولا حمل الطود المعظم رفرف ٨
٨ رويته في الحادثات الا لحظة ٨ وتوقيعه الجالي دجى الخطب احرف ٨
٨ على السيف من تلك الصرامة بيسم ٨ وفي الروض من تلك الطلاقة زخرف ٨
٨ اظن الاعادي ان حربك نائم ٨ لقد نعد الفشل الظنون فتخلف ٨
٨ ولما قضينا ما دعانا اداؤه ٨ وكل بما يرضيك داع فملحف ٨
٨ رأيناك في اعلى المصلى كانما ٨ تطلع من محراب داود يوسف ٨

٨ وقال من مرثية ٨ ٨

٨ يا من شبا الارزاء منه مهذب ٨ ضربت له في السودد الامثال ٨
٨ نقصت حياتك حين فضلك كامل ٨ هلا استضاف الى الكمال كمال ٨
٨ حيا الحيا مثواك واستدت على ٨ ضاحي ثراك من النعيم ظلال ٨
٨ فلئن اذالك بعد طول صيانة ٨ قدر فكل مصونة ستذال ٨

٨ وقال من الغزل وهو من المجيدين فيه ٨ ٨

٨ بيني وبينك ما لو شئت لم يضع ٨ سر اذا ذاعت الاسرار لم يذع ٨
٨ يا بايعا حظه مني ولو بذلت ٨ لي الخيوط بحظي منه لم ابع ٨
٨ يكفيك انك لو حملت قلبي ما ٨ لو تستطيع قلوب الناس يستطع ٨

وروفات بدل

تداحتملوا واستطل اصبر وعزاهن ۞ ووّلى اقبل وقل اسمع ومراطع ۞

وقال امازجا قلبي فأنت جميعه ۞ يا ليتني اضبحت بعض رجاك ۞

يدنو بوصلك حين شطّ مزار ۞ وهم اكاد به اقبّل فالك ۞

وقال في اخرى انّي ذكرتك بالزهرآء مشتاقا ۞ والافق طلق ومرأى الروض قد راقا ۞

وللنسيم اعتلال في اصائله ۞ كأنّه رقّ لي فاعتلّ اشفاقا ۞

والروض من مائه الغضّي مبتسم ۞ كما حللت عن اللبات اطواقا ۞

لاسكن الله قلبا عنّ ذكركم ۞ فلم يطر بجناح الشوق خفّاقا ۞

لو شاء حملي نسيم الريح حين سرى ۞ واقاكم بفتى اضناه ما لاقا ۞

الآن احمد ما كنّا لعهدكم ۞ سلوتم وبقينا نحن عشّاقا ۞

وله القصيدة النونية التي اوّلها بنتم وبنّا وهي اشهر من ان تذكر وقد تداولتها الالسن وزيد فيها ما كانت غنيّة عنه وفضائل الرجل متملّته وكفى بهذا القدر عنوانا لها ۞

ذكر سبب انشآء هذه الرسالة كان بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفآء العرب المنسوبين الى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالداخل من بني عبد الملك بن مروان من بني امية تسمى ولّادة بنت المستكفي بالله محمد بن المستظهر بالله عبد الرحمن ابتذل حجابها بعد نكبة ابيها وقتله وتغلّب ملوك الطوآئف في خبر يطول وصارت تجلس للشعرآء والكتّاب وتعاشرهم وتحاضرهم وتعشقها الكبرآء منهم وكانت ذات خلق جميل وادب غضّ ونوادر عجيبة ونظم جيّد ۞

فمن ذلك ما كتبت به لابن زيدون وهي راضية عنه ۞

ترقّب اذا جنّ الظلام زيارتي ۞ فاني رأيت الليل اكتم للسرّ ۞

وبي منك ما لو كان بالبدر لم يزر ۞ وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر ۞

وقولها فيه وهي عليه غضبى ۞

ان ابن زيدون على فضله ۞ يلهج بي شتما ولا ذنب لي ۞

يلحظني شزرا اذا جئته ۞ كأنّما جئت لأخصى علي ۞

تعني غلاما له يسمّى عليّا وكان سبب قولها فيه هذا الشعر انّ تهمتها بمواصلة الوزير ابي عامر بن عبدوس وكان يلقب بالفار فقال شيئا وفيه ۞

عيّرتمونا بأن قلّ الرجال ولم ۞ يعبّر بنا في ديار نخلفنا ۞

فيمن نحبّ وما في ذاك من عار ۞

اكل

اكل شهي اصبنا من اطايبه ۞ بعضا وبعضا صفحنا عنه للغار ۞ ومن شعرها ما كتبت به على كمها

انا والله اصلح للمعالي ۞ وامشي مشيتي واتيه تيها ۞ واملأ عيني من صحن خدّي ۞

واعطي قبلتي من يشتهيها وما يعني الى وهو عندي كبير على شعر امرأة لحاظكم تجرحنا في الحشا ۞

ولحظنا يجرحكم في الخدود ۞ جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا ۞ فالذي وجب لهذا الصدود

وكان ابن زيدون كثير الشغف والميل اليها واكثر غزله فيها وفي اسمها ثم ان الوزير ابا عامر بن عبدوس ايضا هام بها وكلف بعشرتها وكان قصدهم الظرف والادب وكانت ولّادة كثيرة العبث لذيذة المعاشرة معه نوادر ظريفة مرّت يوما بداره وهو جالس وامامه بركة تولّد من مواصي واقداح وحوله جماعة من اصحابه فوقفت عليه وقالت يا عامر انت الخصيب وهذه مصر ۞ فتدفقا فكلاكما بحر ۞

فلم يجر جوابا ومصت هذه النادرة واشتغل بها الناس وهذا البيت لذيذ نوّاس تمثلت به ونقلته هذا النقل الحسن من المدح الى الهجآء وكان كثيرا ما يتخدعها ويبغي التفرّد بها ۞

وفي ذلك يقول لها ابن زيدون ۞

وغرّك من عهد ولّادة ۞ سراب ترائى وبرق ومض ۞

هي المآء يأبى على قابض ۞ ويمنع زبد ترمن مخض ۞

وكان اوّل امرها معه والباعث لابن زيدون على انشآء هذه الرسالة انّ ابن عبدوس لما سمع بها اليها امرأة من جهته تستميلها اليه وتعدّد لها محاسنه ومناقبه وترغّبها فيه فبلغ ابن زيدون ذلك فانشأ هذه الرسالة البديعة تتضمّن عزآءه من سبّ ابي عامر والتهكّم به والهجآء له وجعلها جوابا له عن لسان ولّادة وارسلها اليه عقيب رجوع المرأة فبلغت منه كل مبلغ واشتهر ذكرها في الآفاق واملى ابن عبدوس عن التعرّض لولّادة الى ان انتقل ابن زيدون الى اشبيلية ومات تغمّدهم الله برحمته وغفر لنا ولهم بمنّه وكرمه هذا ما ذكره ابن حيّان وابن بسّام وغيرهما من المؤرخين

ذكر الرسالة وشرحها اما بعد ايها المصاب بعقله، الموزط بجهله، اما حرف يقتضي معنى احد الشيئين ويبتدأ به الكلام وبعدها هنا تستعمل في الترتيب الصناعي وتقدير اما بعد مهما يكن بعد وهي كلمة يبتدئ بها كثير من الخطبآء والكتّاب كلامهم المحرّر بها آنافهم المحرّرة كانهم يستدعون بها الاصغآء لما يقولون ولذلك فخر

بها سجعان فقال وقد علم قيس بن غيلان انني اذا قلت اما بعد انى خطيبها
وكثيرا ما تأتى عقيب قول الحمد لله وتسمى هنالك فصل الخطاب كما فصلت بين الكلام
الاول والثانى وتأتى عقيب البسملة وتأتى ابتداء كانها عقيب الفكر والرويّة واول
من قالها داود عليه السلام وقيل انها فصل الخطاب المذكور فى الكتاب العزيز وقيل اول
من قالها قسّ بن ساعدة والاول اصح وانما قسّ اول من خطب بها فى العرب و
كتبها اول الكتب على ما ذكر المصاب اسم لمن نزلت به نائبة مصيبة واصاب السهم اذا
وصل الى المرمى بالصواب فالمصيبة اصلها فى الرمية ثم اختصّ بالنائبة العقل المعرفة
المستعملة فى تحرّى النفع وتجنب الضرر ولاهل اللغة والمتكلمين فى اشتقاقه ومعناه
اقوال كثيرة قيل اشتق من عقل الناقة اذا شدّ وظيفها مع ذراعها بحبل يمنعها من
الشرود فكانه يمنع الانسان مما يميل اليه من الهوى ومن عقل الناقة سميت الدية
عقلا لانها تعقل بفناء المقتول اولانها تحبس الدم وقيل اشتق من المعقل وهو
الملجأ يقال عقل الوعل اذا التجا الى جبل يمنعه فكان الانسان يلتجى اليه فى احواله و
قيل غير ذلك واكثر المعانى مشتركة فى الاشتقاق وقال الجاحظ العقل اسم يقع على
المعرفة بالصواب واياتاه اذا اقترنا فى زمان ومكان وكان العلم علة للعمل وقيدا
له فاذا دعى الرجل علمه بالمحاسن الى العمل بها ونهاه علمه بالمساوى وعن العمل بها صار
قيدا لعمله وكان كالعقال لما استحسنه فاذا عقله عليه وحبسه كما يحبس الحمل قالوا
عاقل وقال الراغب العقل يقال للقوى المتهيئة لقبول العلم ويقال للعلم الذى يستفيد
الانسان بتلك القوة عقل ولهذا قال امير المؤمنين رضى الله عنه العقل عقلان
مطبوع ومسموع ولا ينفع مطبوع اذا لم يكن مسموع كما لا ينفع ضوء الشمس و
ضوء العين ممتنع والى الاول اشار النبى صلعم بقوله ما خلق الله تعالى خلقا اكرم
عليه من العقل والى الثانى اشار بقوله ما كسب احد شيئا افضل من عقل يهديه الى
او يرده عن ردّ وكل موضع ذمّ الله تعالى فيه الكفار بعدم العقل فانما اشار الى
الثانى دون الاول وكل موضع رفع فيه التكليف عن العبد لعدم العقل فانما اشار
الى الاول وقال بعض الحكماء هو جوهر بسيط وقال آخرون هو جسم شفاف ومحله
الدماغ وبعض العلماء يقول محله القلب ويستدل بقوله تعالى فيكون لهم قلوب يعقلون

بها وقوله تعالى لمن كان له قلب اى عقل وقال الجاحظ هو مادة تولد من الاغذية المقوية للعصب
ولذلك كان البلاذر جيد له والبصل مضر ولذلك يقال ليفسد الباذنجان فى شهر ما يصلح البلاذر
فى عام ويزعم قوم انه هيئة تحصل بالتربة ولذلك فسدت اذهان المعلمين لمحاطتهم الصبيان
والورطة الهلاك قال رؤبة فاصبحوا فى ورطة الاوراط واصل الورطة ارض مطمئنة لا طريق
ينهار بها هلك الواقع بها ومنه الوراط الخديعة وفى الحديث لا خلاط ولا وراط والجهل ضد
العلم ومنه سميت المفازة مجهلة كانه جهل كيف الطريق فيها وقال الراغب الجهل على ثلاثة اضرب الاول
خلو النفس من العلم هذا هو الاصل وقد جعل بعض المتكلمين الجهل معنا مقتضيا للافعال
الخارجة عن النظام كما جعل العلم معنا مقتضيا للافعال الجارية على النظام والثانى اعتقاد
الشيء بخلاف ما هو عليه والثالث فعل الشيء بخلاف ما حقه ان يفعل سواء اعتقد فيه اعتقادا
صحيحا او فاسدا. البين سقطه الفاحش غلطه. السقط ما لا يرضى ومنه سقط المتاع
رديه وسقط القول خطاه وسقط فى يد الرجل اذا فعل ما يندم عليه وقال الاخفش اسقطت
وهو غير مستعمل والاصل السقوط وهو طرح الشيء من العالى الى المنخفض والفاحش ما عظم
قبحه من الاقوال والافعال ومنه الفاحشة الفعلة القبيحة سميت فاحشة وصار علما لها
والغلط الخروج عن الصواب نطقا او فعلا تقول العرب غلط وغلت بالتاء زعم قوم
انهما لغتان وزعم قوم ان غلط انما يقال فى المنطق وغلت انما يقال فى الحساب العائر
فى ذيل اعتراه. الاعمى عن شمس نهاره. العار السقوط وما قاربه والاعتار الغفلة
واستماع الذيل والعار للغافل حسنة والفقر هنا سببة لما قبلها وبعدها والعمى يقال فى فقد
البصر ويقال فيما عمى وعم وعمى البصيرة حتى قال قوم انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب
التى فى الصدور وشمس النهار هنا كناية عن الصواب الواضح الذى تركه هذا المكتوب اليه
وعمى عنه حتى تعرض للذم او كناية عن مقدار هذه التى هى كالشمس حتى طلب منه ما لا يصل اليه
الساقط سقوط الذباب على الشراب الذباب فى اللغة يقع على هذا المعروف من الحشرات
وعلى النحل والزنابير ونحوها قال الجاحظ ومن الدليل على ان اجناس النحل والدبر وما
اشبهه كلها ذباب ما جاء فى الحديث عن النبى صلعم انه قال كل ذباب فى النار الا النحلة
وقال اللمتس فهذا اوان العرض حيّ ذنابه. زنابير والزرق الملمس. والذباب
هاهنا هو المعروف وسمى ذباب العين لشبهه به او لتطايره شعاعه طيران الذباب

لو ان لك بعوضة تحكى انتفاخا لاصيدت
بمرزم فجب انتفاخا والصيدت بم